جنـــازة

توهمت أنى الشرقى « المتأمرك » الوحيد بين ركب الباخرة التى بعث بها الرئيس روزفلت إلى الشرق لتعود بالأميركيين إلى ولاياتهم المتحدة قبل أن تقطع الطريق عليهم الحرب الوشيكة الوقوع بين أمريكا واليـابان وحليفتيها. توهمت ذلك ، لأنى لم أر ساعة رفعت الباخرة مراسيها وأخذت تبتعد عن الميناء مودعاً واحداً يلوّح بمنـديل ، ولا بصراً واحداً رنا لراكب واحد من ركاب هذه الباخرة التى ستشق طريقها بين عجاجات الجحيم المستعرة بين أنصار الحرية وأشياع الفردية .

ألقيت النظرة الأخيرة على ميناء بيروت ، ولما اختلطت الرؤى وصرت لا أميّز بالعين المجردة إلا أشباح جبال لبنان الضاربة قممها فوق الغيوم دون أشجار الصنوبر الخالدة ، طفقت أرود الباخرة أتطلع إلى ركابها الأميركيين .

إن الروح الجماعية أصيلة فى خُلق الأميركان تستميلهم المغريات كالفرنسويين ، ويدفع بهم حب الاطلاع إلى معرفة ما خفى من الأمور وما استتر من الأشياء وخفايا الناس أيضاً . وهم لا يتورعون عن المراهنة على كل حدث أو خاطرة ؛ فهذه الخاصة هى التى حفزت أكثر الركب ، وقد تعارفوا وتآلفوا ، إلى معرفة طوية رجل « متأمرك » آخر سواى ، نفور جالس فوق كرسى مستطيل من كراسى الباخرة ، لا يجيب عن سؤال راغب ، ولا يلتفت إلى طلب أى طالب ، وقـد استعان هؤلاء الـطُلـَعة بى وكانت رغبتهم فى معرفة ازورار مواطنى الشرقى تكاد تنقلب شهوة ملحاحاً أكثر لجاجة من حب الرهان .

قالت لى فتاة رفافة البشرة : « أحسب صاحبك عاشقاً لأن الحزن يغشّى نفسه بغشاء من اليأس » . وقالت سيدة فقدت حيلتها فى مغالطة نفسها فتركتها لأقدار الزمن : « صاحبك هذا قوى الغرام ، وهذه حالة تنتاب الـكهول حين يشعرون بالهرم » . وقال شيخ : « قد يكون سبب حزنه عدم إتمامه بناء القصر الذى بناه فى قريته فتركه تعشش فيه الخفاش والبوم وعاد إلى أميركا يجمع الدولارات ليتم

بناءه » ولكمني في بطني ، وهو يضحك ، لكمة لولا تعوّد بطون الأميركان تحمّلها لأفرغت ما فيها من كل منفذ . وقال آخر يتعمل الرصانة : « الجنسية الأميركية للبنانيين حصانة تقي أطماعهم من طغيان إخوانهم الأقوياء » . فقالت الفتاة الصبيّة مخاطبة هذا المترصّن : « كنت دائماً ياعمي العزيز تكبر في اللبنانيين مقدرتهم في شق طريقهم للحياة رغم تحاملك عليهم » . قلت وقد قطعت على هؤلاء النقادة حبل استرسالهم : « هذا بحث في خصال قومي سأحاسبكم عليه في ظرف مناسب . أما الآن وغايتكم معرفة أسباب صدوف مواطني عنكم فإني أتكفل بإشباع رغبتكم وإرضاء فضولكم » .

البحر والوحدة أنجع دواء للشفاء من لوعة الحزن ، بل لا حرج على القائل : إذا انطلق لسان المحزون بالشكوى فقد زال نصف دائه ، وإذا لقيت شكواه قلباً واعياً انتقلت إليه . لقد استطعت بوسائلي الخاصة حل عقدة لسان هذا الحزين وهو من مدينة في لبنان اشتهر سكانها بالفطانة والذكاء وعرفوا بالصلابة والعناد والأريحية والشمم لتأصل صفات الحرية فيهم . فقال لي :

— أتعرف حيّ البرازيلي في زحلة ؟ قلت : أعرف الأبنية الجميلة المزخرفة القائمة على ضفاف « البردوني » . قال : يوجد في عاصمة البرازيل حيّ يشبهه في هندسة البناء يدعى الحي الزحلي . قلت : ما علاقة هذا بذاك ؟

قال : لست أبالغ إذا قلت لك إن جل طلاب الكلية الشرقية في تلك المدينة كانوا يتوجهون وجهة الهجرة إلى البرازيل ، ولم يكن يجول في خواطرهم إلا نيل شهادة الدراسة والرحيل إلى البرازيل واللحاق بإخوان سبقوهم إليها ، وهمهم العمل والكسب يبنون بناية جديدة في الحي الزحلي في البرازيل ثم العودة إلى زحلة يشيدون قصراً فخماً في الحي البرازيلي الفخم .

قلت : أعرف روح المغامرة في الزحليين دون سواهم من المهاجرين من لبنان .

قال : ما كدت أفوز بالشهادة المدرسية حتى رغبت إلى والدي أن يأذنا لي في السفر إلى البرازيل وقد وافقا مكرهين .

كانت الباخرة التي أقلتني آنذاك تعج بمئات من المهاجرين أمثالي ، وكانت مناديل المودعين ترفرف كأجنحة الحمام ، والعيون ترنو بين ساهمة ودامعة ، والقلوب تخفق خفقان حنان وحب ورجاء .

كنت مشرد اللب ساعتذاك ، أنظر إلى أمى وأبى بعين الولد البار ، وأنظر إلى فتاة كانت بجانبهما بعين قلبى . لم تكن الفتاة غريبة عنى بل كانت من أقاربى الأبعدين ، وقد جاءت من « كفر شيما » خصيصاً لوداعى . كانت معرفتى بها بسيطة محدودة ، أما فى ذلك الموقف ، موقف الوداع ، فقد انفتحت لها جوارحى فأحسست فجأة بأن كل ذرة من كيانى الذاتى تدعونى إليها ، وأنها هى هى المتممة لتكامل وجودى فى الحياة . فوثبت على غير وعى وثبة قلب محفوز ، وأخذت أدفع الناس حتى شققت طريقى إلى سلم الباخرة ، فهرولت نحو والدى ، فأخذت يد الفتاة بيدى اليمنى ، ويد أمى بيدى اليسرى وقلت لوالدى هاك « أنيسة » خطيبتى بل زوجتى بالروح ، احتفظا يا والدىّ بها . لن يطول غيابى ، سأقتحم البحر ، وأشق المنجم حتى أصل إلى الذهب أقتلعه من أصوله فأقدمه عربوناً للزواج من حبيبتى أنيسة هذه . وقبّلت جبينها قبلة خاطفة فيها كل الدوافع والبواعث والحوافز .

قال محدثى : غمر البحر معالم الأرض ، ولم تعد العين ترى إلا قبّة مكوّرة فوق وجه الماء ، وكنت أرى بعين البصيرة وجه أنيسة الصبوح وعينيها الصافيتين الناعستين تدفعنى دفعاً إلى الأرض الجديدة التى سأنبش تربتها كالخلد وأقضم خيراتها كالجراد .

بدت منابت الأمل فى نفسى تمتد سوقها ، وتبرز براعمها وتورق وتزهر ، وأخذ خيال السعادة يحيطنى بشملة من فرح ترينى وجه المستقبل نضراً بساماً ، فوددت لو أستحث الباخرة أن تثب فوق اليم فتجتاز المحيط ساخرة من أنوائه وعواصفه ، فأصل طفرة إلى حلبة الجهاد والعمل .

لقّننى مواطنىّ فى البرازيل بضع كلمات من لغة البلاد ، وبعد أيام معدودات وسقت أكياسى بأنواع من جوارب ومناديل وأدوات زينة أعطانيها تاجر سورى . أخذت أطوف شوارع عاصمة البرازيل أقرع أبواب المنازل أعرض على ربّاتها بضاعتى . كنت أحسّ الشفقة بى والضحك من رطانتى .

كان تقبّل البرازيليين إياى على هذا النحو يحز فى كبريائى فانتقلت إلى الضاحية جبت الريف وتوغلت فى القرى النائية أسعى على أقدامى . وكلما نقصت بضاعتى كنت أرسل فى طلب سواها من عميلى الذى استأمننى ولا ضامن لى عنده سوى أنى مواطنه !

لله در الأميركانى يا صديقى من عطوف شفيق ، ولكنه طلعة مغامر مراهن . تستضيفه فيطعمك ويؤويك ، لاعن كرم ولابدوات خاطر ، بل عن فضول حافز ملح إلى الاستطلاع والمعرفة .

ركنت إلى الريف أبيع فيه سلعى لا أفرط بمصروف إلا نادراً فى شراء سيجارة أو كوب شراب أو إرضاء رغبة متواضعة . وإن هبطت المدينة فإنما أهبطها لأدفع ما علىّ من دين لعميلى أو أودع المصرف مايتبقى معى من مال .

أخذت أرقام ريالاتى تزداد أسبوعاً بعد أسبوع وشهراً بعد شهر ، فصرت أسخو بتحويل عشرات منها لوالدىّ ولأنيسة .

لم يكن شىء فى الوجود يعادل فرحى حينما كنت أقرأ كتاباً وارداً لى من والدىّ يقول ابى فى ختامه : « أما خادمتك أنيسة فتهدى إليك السلام وتقبل يدك . »

كنت أغتفر لوالدى تمسكه بعادات أصيلة واعتبارات تقليدية فى كينونة المرأة ، وكنت أطلق أعنة خيالى تجول فى عوالم الرؤى أتصور نفسى ملقى عند أقدام خادمتى أنيسة أقبل يديها .

أجل ياصاحبى ! كنت أبعث بكتاب فيه تحويل مالى وألحف بطلب إيصال بالتسلم لأقرأ تحيات بريئة ساذجة ولازمة مستحبة لا يحيد والدى عن تسطيرها بالنص الواحد فى كل كتاب « خادمتك أنيسة تهدى إليك السلام وتقبل يدك . »

اتقدت نيران الحرب العالمية عام ١٩١٤ وامتدت ألسنتها المحرقة إلى جميع أرجاء العالم القديم . أما العالم الجديد برغم اشتراكه فيها فى الساعة الأخيرة فقد راجت أسواقه التجارية وعم الرخاء كل الناس . كنت إن أعجب من شىء فعجبى من أخبار كانت تنشرها صحفنا العربية فى أميركا عن بؤس الناس فى لبنان وموت بعضهم جوعا . ولم يكن يخامرنى شك فى أن أنيسة المحبوبة ووالدىّ العزيزين أبعد من أن ينالهم ما ينال الناس الذين تكلمت عنهم الصحف وأطالت فى وصف حالهم !

انقطعت أسباب الاتصال بينى وبين أهلى ، ولكنى كنت أغالط نفسى ، أتعمد المغالطة فأرسل الرسائل والتحاويل المالية كالعادة إليهم بدون انقطاع وأتهم إدارات البريد بالتقصير فى القيام بالواجب . وكنت أطمئن إلى المغالطة المستحبة لتحيد بى عن مجابهة الحقيقة . وما كادت أجراس الهدنة تدق معلنة وجوع الإنسان إلى وعيه وانعتاقه من وحشيته التى لابسته طوال أربعة أعوام حتى عقدت العزم على العودة إلى الشرق .

عند سفرى إلى أميركا كان الأمل يحدونى وقد افتر لى ثغره وابتسم ، فصار حين عودتى منها إلى وطنى يحدونى الشوق والفرح . فهل ينضحاننى يا ترى بانداء السعادة ؟ كنت فى الذهاب أستحث الباخرة لتصل بى إلى ميدان الجهاد والعمل ، وقد توسلت إليها فى الإياب أن تسرع السير لأصل إلى مقام الحبيبة ومقر الوالدين ، فهل يلازمنى الحظ فى هذه المرة أيضاً ؟ كان دنو الباخرة من الشرق ينسل خيوطاً من غشاوات غالطت نفسى فى تبيّن ما وراءها ويلقينى فى غبش صبح يتنفس الرِّيَب والشكوك . وكثيراً ما كنت أستيقظ من أحلامى ، أنفض صور الذعر وأطرد الخيالات المرعبة ، ولكنى كنت أتجلد وأبتسم .

كل شىء فى ميناء الوطن باق على ما كان عليه إلا مظاهر مجلوبة ورطانة مقتبسة . يممت المدينة ، لم ألتفت إلى همّة ناشطة فى حركة البناء والتعمير ، بل شقت سيارتى طريقها إلى الجبل . صدمتنى مشاهد بيوت خربة وقرى مهجورة . أما قريتنا (كفر شما) مسكن الحبيبة أنيسة فقد كانت مثالاً بارزاً للأطلال الدارسة

أين أبى وأمى ؟ أين أنيسة ؟ أسأل الجار ولا جار ، وسألت الناس وإذا بهم غير الناس . جبت الدساكر المتناثرة حول القرية ، لجأت إلى دير « القرقفة » إلى القساوسة ، استعنت بالعجائز على التعرف على أهلى وأقربائى ففزت منهم بفيض من الأخبار المرتجلة والأكاذيب المفتعلة .

ذهبت إلى مدينة زحلة أسأل عن أمى وأبى فقيل لى إنهما رحلا عن المدينة منذ سافرت ! قد يكون الموت اخترم والدى الشيخين ، ولكن أنيسة ، الريّانة الشباب ، الغريّضة الصبا هل يقوى الموت اللعين أن يمد إليها يدا ؟ هذا محال بل المحال هو هذا !

لا يستنيم الأمل فى نفسى ولا يهجع ، سأترصد الرجاء وأقاوم شبهات اليأس وأجد أنيسة . سأجدها لأنى أرى بصيصاً من روحها يشعّ فى أعماق نفسى ، وأصغى إلى هاتف روحها يدعونى . إذن سأجدها .

استعادتنى أشغالى المتعطلة إلى أميركا . . . استغرقتنى الأعمال أو كادت تنحرف بى عن اتجاه بصيص أمل كنت أتطلع إليه .

كان خيال أنيسة يلازمنى دائماً فى الفراغ وفى العمل ، ولم أكن أذكر والدىّ المسكينين إلا قليلا أستنزل عليهما الرحمة . لم يكن نداء أنيسة آتياً من وراء المجهول بل كنت أسمعها وأراها وأحس بها تتقلب على أذرع الوجود !

هل تزوجت ؟ أشقية هى ؟

فى ذات يوم من أيام ربيع عام ١٩٣٧ لعج بى لاعج خفى ، فنازعتنى نفسى ودفعت بى إلى العودة إلى الوطن أعيد الكرة فى الاستقصاء والاستخبار . لم أمهل عقلى مهلة لهديني إلى الممكنات ويريني المستحيلات بل لبّيت الهاتف الخفى وعدت إلى لبنان ، إلى زحلة .

وفى صبيحة يوم إذ كنت أصعد الجبل إلى كروم العنب والتين ، وإذا بى ألقى فتاة تحمل سلّة على كتفها مغطاة بورق الدوالى . نظرت إليها فإذا بها وضاحة المحيَّا ، ساجية الطرف ، مليحة المعارف . استوقفتها فأجفلت . لمحت فى عينيها نور نفس أنيسة . صرخت على رغم منى : أنيسة ، أنت أنيسة ؟

وقفت الفتاة مبهوتة تجيل نظرة حيرى من عينين غضيضيتين مغرورقتين بدموع رقيقة وقالت :

لست أنيسة يا سيدى ، بل أنا يمنى ، اسمى يمنى .

يمنى ! يمنى مَن ؟ أين أمك ، من هو أبوك ؟

ألقيت أسئلتى بنبرات سريعة جافية كادت تربك الفتاة ، ولكنى استدركت الأمر بتهدئة اضطرابى فتعملت الابتسام لأدخل الطمأنينة على نفسها فقلت : هل لك أن تحدثينى عن والدتك وأين هى الآن ؟

قالت بصوت مختنق : تعيش أنت يا سيدى ! لقد ماتت أمى ومات أبى من زمن بعيد .

قلت : أتذكرين صورة أمك وما وصفها ؟

قالت : مات والدى قبل اكتمال وعيى ، وكل ماأعرفه عن أمى أنها ماتت نفساء وأنها تدعى أنيسة الخشتاوى . أما أبى فأرمنى لا يحسن أحد نطق اسمه . واستطردت كأنها أحست تشوقى إلى الاستطلاع فقالت : إن أسرة بطرس بك قد ضمتنى إليها ، وقد نشأت واستيقظت نفسى بين أولاده وخدامه .

كادت عبارتها فى وصف يقظة نفسها تشغلنى عن غرضى وقد أحسست بعاملين قويين وثبا علىّ وأغارا على مشاعرى : عامل الأمل وقد تحقق بلقيا هذه الفتاة التى لاشك أنها ابنة أنيسة ، وعامل نفسانى يماثل يقظة الحب الذى استيقظ حين رأيت أمها إلى جانب والدتى ساعة الوداع فى الهجرة الأولى .

وافقتها إلى بيت مخدومها . وإذ كنا فى الطريق كنت ألمح فيها طمأنينة الطفل

إلى جوار أمه، وكانت الأفكار، والصوَر والتخيلات ومرائى الماضى والحاضر والمستقبل تتهاوى على ذهنى فتزدحم فيه وتكتظ.

طلبت من بطرس بك يد خادمتـه يمنى فلم يمانع فى الطلب بل علـقه على رضا زوجته التى كان يعز عليها فَقْـد خادمتها اليتيمة.

لم أدع يمنى تشعر طوال أيام الخطوبة أنى كنت أعرف أمها، وقد غامت أو كادت تمحى من ذهنى صور الماضى التى تقمصت وانبثقت متجسدة فى شخص يمنى.

أخذت أوقظ نفسها وأشعرها، رويداً رويداً، بوجدانها الذاتى كإنسان له كامل الحق فى وجوده وحريته فى الحياة. كانت تصغى إلى أقوالى بوعى وتتلقفها بعينيها. صرنا نقرأ الكتب فاندمجت روحها بروحى، وما عتَّمت أن تحولت من تلميذة نجيبة إلى فتاة تدرك وتدرى وتتذوق وتتمرد.

كم تمنيت مطاولة الزمن لأُيسر لها مجالات الروح فى حلبة الحياة بدراية وفرح، وكدت أنسى فوارق العمر وقد ناهزت الخمسين وهى تشرف على العشرين، لذلك أسرعت فى عقد إكليلى.

صمت محدثى قليلا وقد علت وجهه سحابة غبراء، ولـكن ما برح حتى أشرق جبينه وقال:

جعلتُ دانى أنا الرجل الـكهل فاتحة غرام لزوجتى الصبيـة وقلت: أترى تكون بنيتى هذه خاتمة غرامى كما كانت مقدمة كتاب حياتى؟

كان مجرد هذا الخاطر، وقد داهم ذهنى ليلة الزفاف، كافياً لأن يبتعث فىَّ حيوية بكراً ويدفعنى إلى أن أولى على نفسى وفف وجودى وما أملك على زوجتى ابنة حبيبتى.

كم تمنيت فى ساعات الغبطة والهناءة التى كانت تُفيضها زوجتى علىَّ أن تطبق بأصابعها أجفانى فأنام أسـعد نومة أبدية، ولـكن سرعان ما كنت أنتفض مذعوراً إذ أتخيل استجابة أمنيتى فأقبض بذراعى القويتين على جسم زوجتى البض اللدن أتشبث به كالطفل، وأتمتم بكلمات متقطعات اغمغمها بلا وعى استحياء منها ومن نفسى الملتعجة.

لا تعجب يا صاحبى إذا قلت لك إنى كنت أحيا بشخصيتين وأعيش بماضيين. وقد كنت أقوى على صهر روحى فى بوتقة لا دَخَل فيها ولا زيف، وعرفت

السعادة معرفة حسية واستبدلت بأنواع منها عامة شائعة نوعاً لدنيًّا روحياً بحتاً .

أذكر يا صاحبى فوارق العمر ، وتنوع الاختبارات ولا تنس فواصل العقل ونزعات المشاعر ، ولك أن تقدر بعد هذا أن اضطرابى وخلجات نفسى ووساوسى ليست سوى مجرد أوزان قلقة لرجل يغالط الخمسين من عمره ليعيش فى جنون العشرين .

ضحكت طويلا من الزمن وانتقمت كثيراً منه ، وسخرت من تقديرات أناس يعيشون فى الضباب ويقدرون علة فى زهرة لم تتفتح أوراقها فى الربيع حاسبين وجوب انطباق علم النبسات على عالم الإنسان ، جاهلين النفس وعجائب الغريزة وأسرار الروح وقد تفتحت أكمام روحى فى غير فصل الربيع .

انقضى الصيف والخريف ثم الشتاء والربيع وأنا قابع فى دارى أرتع بنعم تفيضها علىَّ زوجتى المحبوبة ، مشمول بعناية خاصة منها . وكانت كلما اطمأنت نفسى بالغبطة تهيئها بغريزتها لغبطة جديدة . وهكذا كنت أرى الأوضاع مقلوبة كأنى أنا وليست هى الطفل الخليق بالتدليل .

لم أكن لها زوجاً بل أباً ، ولم تكن لى سوى ابنة معبودة . وكان هذا الإحساس المختلط يحفزنى إلى إشعارها بأنى زوج قبل كل شىء ! أقول لك ياصاحبى : إن الغريزة امرأة ، والمرأة إرادة ، والإرادة تحايل على البقاء والخلود . ولكل هؤلاء غاية واحدة هى حفظ النسل . وقد تجمعت هذه الادعاءات وانسجمت متوحدة فى ذهنى حين همست زوجتى فى أذنى : إنا سنصبح أبوين .

سوف أصبح أباً ؟ يا لجنون السرور ، بل ياللسرور المجنون ! أحقًّا يكون لى ولد له لطف الملائكة ولغتهم وصفاء السماء وتفتح الزهرة ؟ إذن سأسميه باسم المرحوم والدى ، سيبقى اسم أسرتنا بعدى إلى الأبد . ولكن أترانى أعيش حتى أراه رجلا يستعجله الطمع فى الاستيلاء على أموالى ؟ سيان عندى . . . سأعود إلى العمل ، وأضاعف ثروتى لا لتكون حجاباً بين ولدى والفاقة بل سلماً يتوقل عليه ليبلغ قمة المجد الزمنى . هذا ماجال فى خاطرى ساعة وافتنى البشرى السعيدة .

غدوت يا صاحبى فى فردوس من الغبطة والسعادة يرف على خمائلها خيالى الفياض ، وتبدع فى زخرفتها وتنميقها تصوراتى . لم أكن ذلك الراعى وقد

صدمت هراوته جرة السمن فاندلقت أحلامه وتلاشت آماله وأمانيه ، بل كنت ذلك المحارب الهمجى الظافر لم يصدّه النهم عن الاسلاب والسبايا ، ولم ينقص الحرص والحيلة فى ادخاره استعداداً لحرب مقبلة

عادت إلىّ أطماعى طافرة ، وتنبهت هواجسى وظنونى : خلت الأيدى التى تعمل فى إدارة أعمالى تنهب حيراتى ، وصور لى شيطان الحرص أن عمّالى الأمناء ائتمروا بولدى ليجرموه ما كسبته طوال أعوام الشباب .

لقد انقلبت طفلا ولا تستنى حالة حدبدة ليس فى وسعى تصويرها . صرت أرعى زوجى الحامل كرعاية الأم رضيعها ، وأصدف عن الصحاب وأزورّ إذ ألفى ضيوفاً فى منزلى . وددت لو أحتاز خيرات العالم أقدمها هدية لولدى العزيز .

قلت لصاحبى فى شىء من المباسطة بغية إقشاع السحب المنتشرة فوق نفسه : يخيل إلى أن العامل الخفى فى زوجتك هو الذى جعلك لجوجا وثاباً تقدر الأشياء بمقدار التخيل والتصور . وقد لا يؤذيك إذا قلت لك بصراحة الصديق الصادق : إن بلوغك سر المرأة ابتعث فيك الشهوة عنيفة حادة .

أطرق قليلا وأجاب : الشهوة حيلة إرادة الحياة الكبرى على البقاء . نحن ياصاحبى نخلق الجمال ونعطى المعانى للأشخاص والأشياء ، فالمعنى الصحيح لسرّ المرأة الراحة والطمأنينة . ثم تابع قوله : كانت زوجتى . . .

فقاطعت كلامه قائلا : انتقال من الموضوع بارع ، ثم تقول : كانت زوجتى ، و « كانت » هذه تدل على فعل ماض . فأوما أن تريث وتابع الكلام :

كانت زوجتى . أجل ! كانت زوجتى على شىء عظيم من عزة النفس والكبرياء والمغالبة ، وأنا أنا الذى أنميت فيها هذه الصفات وتعهدتها بدراية وحكمة . كان يلذ لى أن تعلو حجتها على حجتى فأذعن للحق ، وأن يصدم عنادها عنادى فننتهى إلى الرضا . ولم يبلغ كبرياؤنا فى ظرف من الظروف حد الغرور ، بل كنا نخلق الخصومة نورى بها الذهن فنستصبح بومضات الروح منبثقة من ظلمات المجهول . من هذا التناسق والاتحاد جعلنا مواد بناء حياتنا الزوجية . وقد استخلصنا من ضروب أنواع الحب فى فوضى الحياة خيطاً كان لنا بمثابة « الهارمونى » من نشيد العمر يرتفع بفرحة الغاية من الوجود الإنسانى إلى أسمى مقام . أما خيط حياتى هذا فقد انقطع ، أنا الذى قطعته بيدى ، أجل يا صاحبى أنا الذى قطعته بيدى . لقد حطمت جرة السمن فاندلقت

أحلامى أنا انا الراعى الغبى ، وانساح أملى فى الرمل أنا الحى الضائع !
واستطرد يقول :

نظرت إلى عينيه فإذا بنورهما قد ناص كمصباح نضب زيته ، وأجفانهما تكسرت وجمدت فيهما دمعتان . ثم قال :

ذهبت أنا وزوجتى ذات عشية إلى وادى العرايش ، وما كدنا نأخذ مكاناً قرب النهر حتى توافد الصحاب فاتسعت الدائرة واتسقت صفوف الأقداح وشعشعت النفوس فانطلقت الألسنة .

لم تهدأ جلبة السكارى إلا حين ارتفع صوت المغنى يشدو « العتابه » برنين شجى وصوت رخيم تشترك مع معانى العتاب فى تطريب النفس وإثارة ما فيها من حزن وفرح . وقد استفاض صدرى بإحساس مضطرب إذ سمعت المغنى ينشد « غربوا أحبابى » وشعرت كأن أحباباً تناديني .

لقد فاض الدمع من عينى وانهمر . لاشك أنه دمع حنان النفس التى تضطرب فيها الآلام جميعاً !

فى هذه اللحظة تلاقت نظراتى بنظرات زوجتى فاعتلج فى صدرى شوق مفاجىء يدعونى بإلحاح إلى العودة إلى أميركا حيث أموالى المتروكة فى بلاد الناس . وعند ما عدنا إلى البيت سألتنى زوجتى : متى نسافر إلى أميركا ؟ فى تلك الساعة عقدت النية على العودة إلى الوطن الثانى ، وفى تلك الليلة المشئومة انتهى كل شىء !

أجل يا صاحبى ، فى تلك الليلة الملعونة انتهى كل شىء فى وجودى وبقيت وحدى كحروف رسالة بليدة جائمة على قرطاس .

ثم أخذ صوت محدثى يرتفع ونبراته تشتد ومسك يدى بقبضة متصلبة وقال : أنت تعرف أبنية زحلة متلاصقة ومنازلها متلاحمة لا يفصلها من الجيران فاصل .

قلت أعرف ذلك . قال : كنت أسكن بيتاً من هذا الطراز القديم لأنه أقرب إلى إحساسى وألصق بذكريات طفولتى ، هذا البيت الذى كنت إخاله بقعة اقتطعتها الملائكة من فراديس النعيم قد انقلبت بلحظة واحدة إلى قبر فى الجحيم تحيط به نيران قلبى وألسنة الناس . قلت : اكتشاف جناية ؟

فنظر إلىّ نظرة استخفاف خلتها تهز مكمن كبريائى فخجلت . واستطرد قائلا : فى هدأة الليل حيث كل شىء نائم إلا عيون السماء ، دوّى الوادى ، أو توهمت

أنه دوى ، بصوت استغاثة قريب صادر عن قلب هلوع : الحرامى . . . الحرامى . . . النجدة . . . النجدة ! وتلاه ولولة امرأة مخلوعة اللب وعويل أولاد . . . استيقظت بلا وعى أترنح من الذعر أو من الشجاعة . تناولت مسدسى من تحت الوسادة وهرعت لأقتنص السارق . لم يكن فى وسعى ترتيب التصورات المتداعية والخيالات التى تراكمت فى ذهنى وازدحمت فيه مبلبلة مشوّهة . توهمت السارق عميداً من عمداء الجبابرة سلّطته قوى مجهولة تتربص بى لتنتزع منى زوجتى أم ولدى ، وارث أموالى ومخلد ذكرى . لقد جن جنون أنانيتى وثارت فىّ فطرة الإنسان أو غريزة لبوة بكرية اقتحم وحش ضار عرينها فهبّت تدافع عن أشبالها . كنت أروح وأجىء وأتوهم أنى أقفز من سطوح إلى سطوح ، أدور حول نفسى كاللولب ، أنادى السارق بصوت متهدج أجشّ .

اختلط صوتى بعجيج أصوات عشرات الشبان الذين خفوا مسلحين للفتك بالسارق . إن السطو على منزل فى زحلة عروس مدن لبنان إنما هو تحد لكرامة أهلها واستهانة بتقاليدهم ونخوتهم .

لمحت شخصاً ماثلا قبالتى ، فتصورته عملاقاً من الجن ينقضّ علىّ . أحسست بالعملاق الجبار يرفع يديه ليسحقنى . . . أطلقت رصاصة ، أو انطلقت من المسدس رصاصة ردد الوادى صداها ، أصابت الهدف فسقط الجسم بدون حراك .

أيقظنى الانتصار من غفوة الذهول فتنبهت إلى نفسى وإذا أرى حولى طائفة من الجيران أقبلت على صوت الطلق النارى .

سمعت صراخاً وعويلا وتأسفات فيها كل معانى الألم والحزن والشفقة . . . أشعلت الأنوار ، تجمع الناس ، تبينتُ الوجوه فإذا بالعيون تحدجنى بنظرات أسى وحيرة ملتاعة مضطربة .

دهمنا الجند فإذا بهم يطبقون على القاتل يجردونه من سلاحه وقد دل الجيران عليه .

يا للإجناد الأجلاف ! يا لرجال التحقيق ما أطيب قلوبكم ! لقد منّوا علىّ تكرماً منهم بإطلاق حريتى ريثما أرافق جثمان زوجتى فأواريه التراب !

ويلاه ! لقد جمدحسى فى تلك الساعات وتبلد شعورى وزاغت نظراتى ، كنت أعتصر عينى أستجدى قلبى قطرة من دمه ، ولسانى كلمة واحدة أنطق بها . كنت أرى جثمان يمنى مسجّى فى النعش على رأسها أزهار الليمون التى زانته

يوم إكليلنا وقد غطى الورد ثوبها الأبيض الغارق بالدم ، وكنت كقمة الجبل الشاهق جموداً وبرودة . وهأنذا أحس بالوقائع ماثلة أمامى أصورها لك مثل الرؤى والشعور .

أحسست الأرض تدور بى والآلام تنساب فى نفسى تنهب وتنوش أعصابى .

أما محدثى فقد اعتدل فى جلسته واشتدت نبرات صوته وقال :

من السخرية الاستعانة بالعدل الإلهى واحترام شرائع الناس ! أليس رعونة أن تبرأ ساحة القاتل ويطلق من عقاله ولما يجفّ دم المقتول بعد ؟ أليس ظلماً أن تعاد إلىّ حريتى أنا القاتل الآثم ؟ أين القصاص من الحياة ؟ أمن العدل أم من الظلم أن أجوب الأرض ، أتسكع فى الشوارع ، أطوف حول الذكريات ، أتلمس آثار الحياة وأنا ميت القلب والروح ؟

اسمع يا صاحبى : ليس العدل والشرائع والقوانين والأديان نفسها تستطيع أن تشفى أدواء الناس ، إنما الذى يستطيع ذلك هو الضمير . وسأنفذ أحكامه التى أرتضيها لنفسى حاكما محكوماً

ثم استسلمنا كلانا للصمت .

توهمت صاحبى المسكين لا يواصل رحلته إلى أميركا بل يترك الباخرة عند أول ميناء ثم يتطوع للحرب حتى الموت . ولكن سرعان ما استملح هذا الخاطر يتوارى فى طيات كلامى حتى قال لى ضاحكا : أتحسب الموت يقضى على الموت ؟ قلت : لا أفهم ماذا تعنى . قال : ولا أنا أيضاً أفهم كيف أقضى بيدى على حياة ألقيتها فى غيابات العدم ، بل أفهم أنى سأبقى فى فراغ يتساوى والعدم ، وسأستمهل الموت حتى ألقى فى كل ساعة ميتة تكفّر عن جنايتى .

طفرت دمعة كبيرة من عينى المسكين فتلقاها بمنديله . وعندما همّ بالنهوض تخاذل وخانته قواه ، فتأبطت ذراعه وأسندته على كتفى حتى بلغ غرفته فى الباخرة .

وإذ كنت عائداً لقيت الطلعة من الأميركان وقد هيبوا سؤالى وانصرفوا يتبع بعضهم بعضاً .

حبيب الزحلاوى